المبتذل من خلال كتاب البخلاء للجاحظ
– دراسة دلالية معجمية–

أ.سعيد فاهم

جامعة مولود معمري/ تيزي–وزو

الجاحظ في سطور: (الجاحظ) هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الفقيمي البصري، الملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه اختلف المؤرخون في تاريخ ميلاده وذهب أغلبهم على أنه ولد في سنة 159هـ الموافق لـ 775م بالبصرة مهد العلم والأدب، وذلك بداية خلافة المهدي الخليفة الثالث في الخلافة العباسية، طلب العلم أولا في الكتاتيب والحلقات في المساجد، واتصل بأكبر علماء زمانه في اللغة والأدب وفي مختلف علوم المعرفة كالبلاغة وتميز بسعة الإطلاع، وتحرير العقل وربما فاق أستاذه النظام في اطلاعه على كتب الثقافة الفارسية، كما أعجب الأدباء بأسلوب الجاحظ في الكتابة والحياة عموما، فألفوا كتبا في تقريضه.[1]

وكان من عادة الوزير ابن العميد أكبر كتاب الرسائل الديوانية إذا حضر مجلسه أحد منتحلي العلم وأراد امتحان عقله سأله عن بغداد والجاحظ. وقد ألف أكثر من 350 كتابا صور فيها جميع مظاهر الحياة ونشاطها في المجتمع الإسلامي وفي كل ذلك، فهو متسع الرواية، مائل إلى الفكاهة، حريص على تصوير الواقع بصدق معتمدا في غرضه على الجدل المنطقي في لغة حلوة متميزة أحيانا بالاستطراد فلقت هذه الطريقة هوى في نفوس البعض، واتهمه البعض بالثرثرة الجميلة، التي هي فن تعمد الجاحظ معالجته.[2]

ويرى المسعودي أن خروج الجاحظ من الجد إلى الهزل له ما يبرره مما جعل سائر كتبه في نهاية الكمال، كما لازم الوزير محمد بن عبد الملك الزيات زمنا طويلا، صاحبه فيه خير صحبة، ولما قتل الزيات على يد المتوكل هرب الجاحظ

ثم فبض عليه، ولما عفي عنه عاد إلى موطنه وكان قد تجاوز السبعين حولا، وبقي يرضي رغبته في القراءة والكتابة والتأليف حتى أصيب بالفالج واشتد به الحال فكان يشتكي بالأسقام ووطأة الأيام. [3]

وأصبح يتذمر من أحوال الدنيا وما آلت إليه، فبعث إلى بعض إخوانه في ذم الزمان: "كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، وأشبه عليه حال دهره، ومخرج أمره، وقل عنده من يثق بوفائه، ويحمد مغبّه إخائه لاستحالة زماننا وفساد أيامنا ودولة أنذالنا." [4]

واختلفوا في تاريخ وفاته كما اختلفوا من قبل في تاريخ ميلاده، والغالب أنه توفى سنة255هـ إبان حكم المعتز بالله، مات في عمر يناهز السادسة والتسعين بعد أن ملأْ ذكره الأرض.

2- التعريف بكتاب البخلاء: يعتبر البخلاء من أعظم آثار الجاحظ التي أبقت الأيام عليها، ومن الصعب الإحاطة بكل المميزات الفنية لهذا المؤلف، وهذه بعض الملاحظات التي استنتجتها أذكر منها ما يلي:

1- إن للجاحظ روحا فنية طليقة سيطرت عليها النزعة الفنية والأدبية فكان قالبا أدبيا جذابا.

2- إيراد الحجج بالجد والهزل وتشقيق الكلام وربما وضع وولد كثيرا من الأحاديث توليدا دون تحرج.[5]

3- التهكم والسخرية: وسخريته متميزة فهو يسخر من القاضي كما يسخر من الراعي، وقد يتهكم على البخيل بالدفاع عنه والاحتجاج له.

وأعتقد أن الجاحظ قد تجشم هذه الصحاب لأغراض وأهداف اجتماعية أراد من ورائها خيرا، كإصلاح الفكر والتوحيد النفسي للتخلص من شحنات نفسية معينة ولعل اشتغال المجتمع بالماديات كان سببا في ذلك.

4- دقة الوصف وتتبع جزئيات الحوادث: فكان صريحا في كثير من المواقف التي تتطلب الوقار والاحتشام يمزج بين الجدل والهزل فيرصد حركات البخلاء ونظراتهم ويفضح أسرارهم.

ومن جهة أخرى فقد عني الجاحظ بالخصائص الاجتماعية والأحوال المعيشية لطبقات المجتمع المختلفة، فكان كتاب البخلاء من الأدب الواقعي المتميز بالإبداع الفني، وكان لظهور كتاب البخلاء في زمن ظهور اهتمام الناس بالكتب إلى جانب الرغبة الجامحة عن الملذات واقتناص الشهوات، فحصل ترف اجتماعي تبعه ترف في اللغة عجيب، وكان الجاحظ قد ترصد رغبات الناس وفهم ميولهم، فعمل على إرضائهم.

وركز أغلب نقده للبخلاء على ظاهرة البخلاء أو بالأحرى ظاهرة البخل بالطعام والشراب، وهذه من ملذات الدنيا التي لا يستغني عنها إنسان سوي والبخل صفة من المنع والحرص على ما يبقي الحياة ويشترك فيه الناس في كل زمان ومكان لذا يمكن القول بأن ما في كتب الجاحظ سمات تجعل أدبه من بواكر الآداب الإنسانية، وقد كان الجاحظ حريصا كل الحرص، فلم يترك للنقاد الباب مفتوحا فيأخذون عليه تهكمه واستهتاره، فلجأ إلى الاعتذار من اللحن وسوء التعبير فقال: "إن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب ولفظا معدولا عن جهته فاعلموا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده، إلا أن أحكي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشياعه."[6]

أما ما يخص المدونة قد اخترت كتاب البخلاء ليكون مدونة أستخرج منها المفردات التي أتناولها بالبحث والدراسة، أما ما يخص مسوغات البحث فهي:

1- بعد تفكير جدي في طبيعة الموضوع وقع اختيارنا على الجاحظ وأعماله لاعتبارات كثيرة أهمها:

أ/ طبيعة الجاحظ الشخصية وقدراته الفكرية والعلمية

ب/ القيمة المتميزة لأعماله الأدبية وشهرتها في اللغة والأدب.

ج/ طبيعة العصر الذي عاش فيه وما يتميز به من رقي حضاري ولغوي.

تعريف الابتذال: معناه في اللغة الامتهان، وابتذل الثوب وغيره امتهنه وابتذال الألفاظ وامتهانها هو من الاحتقار لما تحمله من معان تنفر منها النفس ويهرب منها الذوق، فتنحط دلالتها شيئا فشيئا لقلة استعمالها على ألسنة المتكلمين، ثم استبدالها بغيرها، والألفاظ ذات الدلالات القبيحة كالحياء أو الغريزة الجنسية أو الضعف النفسي أو الهلاك[7]، فتستعيض الناس عن هذه الألفاظ بأخرى تعبر عن الدلالات نفسيا ولكن في رموز، فمن ذلك الرموز المحرمة لأسباب اجتماعية التي ترغب في تغيير الكلمات مراعاة للياقة، إذ ليس من اللائق أن تتكلم في أحد المجتمعات الراقية عن أفعال معروفة بالفظاظة أو أنها مما يحرج الحياء، اعتمادا على العرف السائد في المجتمع.

أما ما يخص الجزء التطبيقي فقد اعتمدنا طبعتين من كتاب البخلاء، فالأولى للدكتور يوسف الصميلي، والثانية للدكتور طه الحاجري، ثم قمنا باستخراج بعض الألفاظ المبتذلة ولاسيما الألفاظ التي تختص بالأطعمة والأشربة، كما ذكرنا ألفاظا تختص بالحياة الاجتماعية.

ويمكننا أن نمثل بهذا الجدول الآتي:

الكلمات المبتذلة	**البخلاء طبعة الصميلي[8]**	**البخلاء طبعة الحاجري[9]**
السكباج	لقد ذكرها الصملي بمعنى المرق الذي يعمل من اللحم والخل	أما الحاجري فقد قال إنها لحم
الطباهج	طعام من بيض وبصل ولحم	ضرب من قلي اللحم
الجوارشن	نوع من الأدوية والكلمة فارسية معناها الهضام	نوع من الأدوية يقوي المعدة
الخشكار	ما خشن من الدقيق او ما بقي في	ما خشن من الطحن ويصنع

	المنخل بعد الانتخالة أي النخالة	من دقيق الشعير ويحشى قيه الجوز والسكر
الشيرقات	قطع من لحم صغيرة يطبخ	طعام العجم وعيش كسري، بئس العيش هذا كان عمر بن الخطاب يضرب على هذا
اليستندود	نوع من الفطائر المحشوة	نوع من الفطائر المحشوة
الشاذروان	ماحول المدينة من بيوت ومساكن	لم يشر إليها الحاجري أنها مبتذلة
جرذ قتان	مفردها جرذقة ومعناها الرغيف	الرغيف، حيث مازال بعض السورين يصنعون ضربا من الخبز الرقاق.
الأشنان	ما تغسل به الأيدي من الحمض	الملاحظة نفسها
الشاهسيرم	نوع من الرياحين يقال له الريحان السلطاني إذا رش بالماء اشتدت رائحته	الملاحظة نفسها
الشحشحان	الشحيح	الملاحظة نفسها
الجواسق	مفردها جوسق ومعناها القمر	//
الجمات والسكرجات	والسكرجة الصحفة التي يوضع عليها الطعام	إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم
الخشكنان	نوع من الكعك محشو بالجوز والسكر والفستق ويكون على شكل هلال	الملاحظة نفسها

الكلمات المبتذلة	البخلاء طبعة الصميلي[10]	البخلاء طبعة الحاجري[11]
طفيشلة	نوع من المرق	لم يشر إليها الحاجري
الدرياجة	البحيرة	للدلالة على الجزء المحدود من الشاطئ
الفالوذق	حلوى تصنع من الحنطة	الملاحظة نفسها
البرني	نوع من الثمر أقل جودة	الملاحظة نفسها
الجيسران	جنس من أجود الثمر	جنس من أفخر النخل
الفالونجات	جمع فالوذج فتات الخبز بالعسل والسمن	الملاحظة نفسها
التبليا والبربند	أدثان لصعود النخل	الرباط أو المصعد المصنوع من الحبل
الأزد مردية	الرجل الكريم، الأجرار وكانت هذه اللفظة تطلق على بعض الطبقات الرفيعة في إيران قبل الإسلام	الملاحظة نفسها
الإسار	الضيافة	الملاحظة نفسها
نشوار	لم يشر إليها الصميلي	أصلها نشخوار ومعناها جرة الحيوانات المجترة
البابة	الملاحظة نفسها	حيث يقول في البخلاء "أما سائر حديث هذا الرجل فإنه من هذه البابة "ويقصد به المدخل
اشكنج	الملاحظة نفسها	معناه التعذيب
الأثافي	الملاحظة نفسها	وهو حديد ذو ثلاث قوائم تنصب عليه القدور
النعال السندية	الملاحظة نفسها	نسبة إلى إقليم السند الذي كان مشهورا بصناعة النعال
الخروش	الملاحظة نفسها	هي صاحبة الخرسة

الوكيرة	الملاحظة نفسها	هي طعام يعمل عند الفران من البنيان يقول الجاحظ "ومن طعامهم الوكيرة وهو طعام البناء كان الرجل يطعم من بنى له وإذا فرغ من بنائه تبرك بإطعام أصحايه ودعائهم
الجردبيل	الملاحظة نفسها	الذي يضع يده على الطعام لئلا يتناوله غيره
النشال	الملاحظة نفسها	الذي يتناول من القدر ويأكل قبل أن تنزل من القدر
خوامزكة	الملاحظة نفسها	من ألوان اللحوم
كردناج	الملاحظة نفسها	نوع من أنواع الشواء
النشاستج	الملاحظة نفسها	قال الجاحظ "أشكيت أياما صدر من سعال كان أصابني فأمرني قوم بالفنانيد السكري وأشار إلى آخرون بالخريزة تتخذ من النشاستج والسكر ودهن اللوز وأشباه ذلك مسحوق أبيض يكثر في الحبوب
الفنانيد	لم يشر إليها الصميلي	حلوى تصنع من السكر ودقيق الشعر
الخبيص	الملاحظة نفسها	ضرب من الحلوى يعمل بالتمر

خاتمة: من خلال هذا البحث الموجز توصلنا إلى أن الألفاظ التي استعملها الجاحظ تعبر عن الحضارة، ولاسيما أن عصره، عصر ترف وبذخ تنوعت فيه الأطعمة والأشربة. ولعل الاحتكاك بالأعاجم خاصة الفرس، أدى إلى إثراء المعجم العربي بألفاظ جديدة، دخيلة، أغلبها في الأطعمة والأشربة وغيرها.

ــ لقد اعتمدنا طبعتين مختلفتين، الأولى ليوسف الصميلي والأخرى لطه الحاجري، والظاهرة اللافتة للانتباه أن هناك ألفاظا أشار إليها الحاجري، إنها ألفاظ مبتذلة في حين أن الصميلي قال إنها ألفاظ فصيحة. ولعل هذا الاختلاف يعود إلى اختلاف منهج الدراسة.

ــ كما قمنا باستخراج حوالي أربعين (40) لفظة مبتذلة أغلبها فارسية، كما قدمنا دلالاتها المعجمية.

ــ وبناء على ما سبق أن كتاب البخلاء من أعظم أثار الجاحظ التي أبقت الأيام عليها، ومن الصعب الإحاطة بكل المميزات الفنية لهذا المؤلف، وأعتقد أن الجاحظ قد تجشم هذه الصعاب لأغراض وأهداف اجتماعية، أراد من ورائها خيرا كإصلاح الفكر والمجتمع.

الهوامش:

1- المسعودي: مروج الذهب، ج4، دار الأندلس: 1981، ص102.

2- المرجع نفسه، ص109.

3- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

4- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت: 1982، ص242.

5- تهذيب الأزهري، ج1، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ص30.

6- الجاحظ: البخلاء، تح: طه الحاجري، دار المعارف، مصر: 1981، ص40.

7- ينظر: صحاح الجوهري، ج4، ص102.

8- ينظر: الجاحظ: البخلاء، تقديم وضبط وشرح وتدقيق وفهرسة: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت: 2001، ص24، 34، 87، 208، 60، 45، 48، 74، 83، 110، 112.

9- ينظر: الجاحظ، البخلاء، تحقيق: د/طه الحاجري، سلسلة ذخائر العرب23، دار المعارف مصر: دت، ص121، 212، 35، 96، 211، 63، 120، 292.

10- ينظر: الجاحظ، البخلاء، تح: الصميلي، ص114، 118، 120، 123، 180، 185، 193، 210، 212.

11- ينظر: الجاحظ، البخلاء، تح: الحاجري، ص129، 127، 212، 82، 132، 143، 223، 104، 213، 34، 76، 31، 203.